رسالة إلى أبي

بقلم رجاء النقاش

بدأ يبكي بصوت خفيض ، ثم ارتفع صوته شيئا فشيئا حتى ملأ جوانب الحجرة ، واصبح بكاؤه اشبه بالصراخ او العويل ... ولم يكتف الطفل الصغير بدموعه وصوته المرتفع ، بل اخذ يدب في ارض الحجرة بقدميه ، ويضرب الحائط بقبضة يده الرقيقة الصغيرة . وفي الحجرة كان الاب والام يوشكان على النوم ، فالليل قد انقضى ثلثه الاول، وحان الموعد الذي تعود الاب ان ينام فيه . وكان هذا الاب واحدا من الرجال الذين يفرضون ارادتهم على افراد البيت ...انه قوي الشخصية ، حاسم الكلمة ، لا يحب معارضة الاخرين ولا يقبلها ، أما عاداته فثابتة راسخة ، وعلى الجميع ان يقبلوها وان يحاولوا التلاؤم معها ... وعلى العكس من ذلك كانت الام : انها رقيقة عاطفية ، ومطيعة لزوجها ، ولا تعارضه على الاطلاق ، وهي تدلل ابناءها وتداعبهم كثيرا اذا ما كان الوالد بعيدا عن البيت ، اما في حضوره فلا كلمة الا ما يقول ، ولا صوت اعلى من صوته ... انها تنسى شخصيتها لتكون مطيعة لذلك الاب ، منفذة لاوامره ...

واشتد بكاء الطفل ، فقام ابوه اليه ، وساله في شدة وحزم :

ـ ماذا تريد ؟

ـ لا شيء ...

ـ اذن لماذا تبكي ؟

ـ اريد ان اشرب .

وقدم له الاب كوبا من الماء ، ولكن الطفل لم يكف عن البكاء .. اخذه والده ووضعه في سريره ، وطلب منه في كلمات قاسية حازمة ان ينام ، ولكن الطفل استمر في بكائه وصراخه .. وعاد اليه الاب ، ولم يتكلم هذه المرة « وانما اخرج الطفل من سريره ، وحمله الى الشرفة حيث تركه بعض الوقت وحيدا ، وليس على جسده الا رداء رقيق ، واغلق باب الشرفة » تاركا ذلك الطفل بين الفزع والظلام ، والاحساس الغامر بالقسوة ... اما الام ، فقد وقفت موقفا سلبيا .. لم تعترض ولم تقاوم ، ولم تستطع ان تنزع الطفل من يد ابيه ، بل لم تفكر في أن تعبر عن سخطها على تصرف الاب .

امتلأت نفس الطفل بالرعب ، وكف عن البكاء ، ووقف في شبه ذهول ، وقف في ظلام الشرفة لفترة من الوقت ، ربما كانت قصيرة ، ولكنها كانت بالنسبة اليه طويلة قاسية .

وكبر الطفل ، واصبح شابا معروفا بشخصيته الخاصة، وميوله المتميزة .. كان اسمه « فرانزكافكا » . وأصبح « فرانز » بعد ذلك اديبا وكاتبا كبيرا .. لقد تقلبت عليه الاحداث بعد ذلك ، وحملته الايام الى مراحل جديدة من العمر غير مرحلة الطفولة ، ولكنه لم ينس ابدا ذلك الحادث الذي وقع له في طفولته .

ربما لو وقع هذا الحادث لطفل غير هذا الطفل ، ومن اب غير هذا الاب ، لكانت الايام قد استطاعت ان تمحوه ، وان تجعل منه ذكرى طريفة من ذكريات الوعي الاول بالحياة ... ولكن الحادث الصغير كان جزءا دالا من سلوك الاب وشخصيته العامة ، ولم يتغير هذا الاب عندما تغير ابناؤه وتقدم بهم السن واصبحوا في مرحلة الوعي الذاتي المستقل ، بل ظل يتبع نفس السلوك . ويعامل اولاده وعلى راسهم « فرانز » نفس المعاملة القاسية ، التي لا تعرف اللين ، ولا تعرف الحنان ، والتي تدل على شخصية واثقة بنفسها ثقة سدت عليها منافذ الايمان بالاخرين .. فليس هناك في نظر هذا الاب من يدرك الامور ادراكا صحيحا الا هو ، وليس هناك من سلوك صائب الا سلوكه ، وليست الحياة كما يفهمها اولاده ويحبونها ، ولكنها كما يفهمها هو، وكما يشعر بها ... فاذا اختلف معه أو اختلف عنه واحد من ابنائه ، فان هذا الاختلاف ليس له معنى الا الخطأ ، وسوء التقدير والشعور . وكانت شخصية الوالد مدعمة بعدة عناصر ... فهو تاجر يهودي ، بدأ حياته من السفح ثم اصبح باجتهاده ومثابرته وقسوته على نفسه تاجرا ناجحا غنيا ، ولم يكن ضعيف البنية ، بل كان قوي الجسم ،ممتد القامة ، عريض الصدر .. وكان تفوقه الجسماني واضحا الى ابعد الحدود ، ومن هذه العناصر ، او من هذين العنصرين على وجه التحديد اكتسب الاب ثقة كبيرة بنفسه ، واصبح يرى في شخصيته مثلا اعلى ينبغي ان يحتذيه الابناء ، كان هذا الاب يقول لابنائه : « انكم تعيشون حياة جميلة أكثر مما يجب .. »

ثم يعقب على ذلك قائلا : « حين كنت في السابعة من عمري كنت اتنقل من قرية الى قرية ، دافعا امامي عربتي الصغيرة ، كنا ننام جميعا في حجرة واحدة ، وكانت تملأني السعادة حين نعثر على البطاطس لنتعشى .. كنت اليس في زمهرير البرد ملابس ممزقة خلقة حتى ان القروح التي اصابت اطرافي ظلت سنوات طويلة لا تلتئم ... كان يتعين علي بعد ان صرت صبيا ان اذهب لاعمل في احد المحال التجارية .. لم يكن اهلي يعطونني شيئا من النقود ، بل انني كنت ارسل اليهم ما يحتاجون اليه منها بعد ان التحقت بالجيش ... ولكن من يدرك هذه الحقيقة في هذه الايام ؟ هل يستطيع ابناء اليوم أن يفهموا ذلك ؟»

بهذه الطريقة كان الاب « هرمان كافكا » يتحدث الى اولاده .. انه معتز بنفسه ، فخور بها ، مندهش بضعف

شخصية اولاده ، وعجزهم عن بلوغ ما بلغه هو من تقدم وتفوق في مجال الحياة العملية .

ولكن « فرانز » الابن خرج الى الحياة اديبا فنانا ، ولم تكن علاقته بالادب والفن عن طريق القراءة والكتابة فحسب بل كان أحساسا عميقا سيطر على شخصيته كلها .. لقد كان يعالج امور حياته بتلك الحساسية المرهفة الدقيقة ، الذكية في نفس الوقت ، واستطاع عن هذا الطريق ان يصل الى مستوى كبير رائع من الفن ، فاصبحت رواياته وقصصه القصيرة من اروع ما انتجه القلب البشري في القرن العشرين ، واصبح فن كافكا شاهدا من ابرز الشواهد واصدقها على ما يعانيه الانسان الحديث من آلام وتمزقات ومآسي عديدة . وينظر النقاد الى ادب كافكا على انه مثال لما يسمى « بالادب الاسود » اي ادب التشاؤم والحزن ،ادب الكآبة والاسى .. على ان احزان كافكا ليست نابعة من السطح ، وليست نابعة من الآلام العادية القريبة وليست نابعة من العجز . ولكنها احزان عميقة قادرة ، تمزق الستار الخادع الذي كانت الحياة تضعه على نفسها أمام الناس في القرن العشرين ، فاذا ما ظهر فنان قادر حساس ، استطاع ان يمزق ذلك الستار ، واستطاع ان يقول : ان حياة اوربا في النصف الاول من القرن العشرين هي تمزق .. هي مأساة .

هذا الفنان الذكي الحساس لم يخدع نفسه لحظة بوهم ، ولذلك فقد واجهه الفشل بعد الفشل في كثير من مشروعات حياته ، وانتهى به الامر الى ان مرض بالسل حيث مات وهو في الواحدة والاربعين ، في سنة ١٩٢٤ .. وكانت هناك ثلاث قضايا رئيسية في حياته : الاولى هي قضية الحياة في المانيا في مطلع القرن العشرين ، لقد كانت حياة مريرة ، يسيطر عليها التنافس الفردي ، وليس في قلوب الناس نحو بعضهم أي من الحنان ... الناس كالسمك ، يأكل الكبير الصغير ، وياتي القادر على الضعيف، وليس هناك حدود للثراء ، وليس هناك حدود للفقر .. تستطيع ان تصبح صاحب ملايين باي طريقة من الطرق ، سواء كان عليها علامة الشرف ، ام كانت خالية من هذه العلامة ... وينتج عن هذا بالطبع نوع قاس مر من انواع الحياة ، ولا يمكن ان تستريح الحساسية المفرطة الذكية لهذه القسوة ، ولهذا الصراع الخالي من الجانب الانساني السليم .

هذه هي القضية الاولى من حياة« كافكا » ، اما القضية الثانية فهي قضية حب .. فقد خطب فتاة بعد حب ،سنة ١٩١٤ ... وبعد فترة قليلة تمزق حبه .. ويمكننا ان نتصور هذه الهوة التي حدثت بينه وبين حبيبته وخطيبته ... لاشك ان الاختلاف بينهما كان اساسيا ، هو يفكر في كل شيء ، ويشعر بكل شيء . وكان « كل شيء » على غير ما ترتضيه الفطرة الانسانية الحساسة السليمة في مثل ذلك المجتمع الالماني القاسي الذي كان يعيش فيه « كافكا » ... ولكن ماذا يعني الفتاة من هذا كله ؟ .. ان « كافكا » في نظرها محام ، وكاتب وهو ابن لرجل صاحب ثروة كبيرة واسعة .. ماذا يعنيها اذا عاشت هي سعيدة الا يكون الناس سعداء ؟ ماذا يهمها من آلام الدنيا ما دامت هذه الالام لا تستطيع ان تبني لنفسها عشا في سماء حياتها ؟ ..انها تفكر في نفسها وفي خطيبها وحسب، اما هو فيفكر فيما هو ابعد ، انه يرى الدنيا تحت «ميكروسكوب » حساسيته ، فيرى كل شيء ، ويراه حزينا قاسيا فيفكر ويتأمل ويأسى ... وتكون النهاية بالطبع ان « يفشل » حبه ، وتتركه خطيبته الى حيث تجد كوخا فيه طمأنينة ، وليس في ذلك القلق المخيف العنيد ، ومرة ثانية يحاول ان يتزوج ، ويجد حبا جديدا ، ولكنه سرعان ما يفشل ، وعند فشله الثاني يكتشف انه مريض بالسل .

فقضية« الحب الفاشل » قضية رئيسية هامة في حياة هذا الانسان ..

تبقى قضية ثالثة ، هامة واساسية ، هي قضية « علاقته بوالده » .. تلك العلاقة السيئة المريعة ، التي خلدها « كافكا » في رسالة ذات يوم كتبها الى ابيه .. وسلمها لوالدته الرقيقة النبيلة لتعطيها لهذا الوالد القاسي المعتز بنفسه ... ولكن الام اخفتها حتى مات الاب ، وحتى مات الابن أيضا ، وذهب صديق الفنان ورفيقه الناشر المثقف «ماكس برود » ليجمع اوراقه ، ويقرا وصيته ، واستطاع ان يجد الرسالة في هذه الاوراق ، فنشرها ، وكانت طويلة كبيرة في حجم كتاب صغير ... اما الوصية التي تركها

« كافكا » قبل ان يموت لصديقه « ماكس برود » فهي ان يحرق كتبه كلها ، ويحرق اوراقه جميعا ، فليس فيها فائدة ولا نفع ، وليس لها قيمة في نظره .. ولم ينفذ « ماكس » وصية صديقه الراحل ، بل كان احرص الناس على نشر انتاج كافكا وتقديمه الى مسرح الثقافة الاوروبية ، بل والثقافة العالمية حيث احتل « كافكا » مكانا كبيرا في الادب الحديث ، وخصوصا بعد وفاته ..

ان رسالة « كافكا » الى والده هي درس كبير من دروس الحياة الانسانية .. انها موجة في الظاهر الى والد كافكا ، ولكنها في حقيقتها موجهة الى كل والد ، ولو قراها الاباء لتعلموا الكثير عن فن الابوة ، وعرفوا الى اي حد يمكن ان يكونوا في حياة ابنائهم شيئا جميلا رائعا في بعض الاحيان ، وشيئا قاسيا مؤلما في احايين اخرى . فدور الاب يبدأ في حياة الانسان منذ اللحظات الاولى لخطواته في طريق الحياة بل ان اول « عالم » يلقاه الانسان هو « عالم الاب » ، فاذا كانت الام هي مصدر بقاء الابن لانها تغذيه وترعاه وتساعده على النمو والاستمرار ، فان الاب هو الواسطة بين الابن والمجتمع ، ان الاب هو الذي يمثل العالم الخارجي ، فتصرفاته وسلوكه ومعاملته لابنائه هي الخطوط الاولى الاساسية التي تعطيهم « فكرة الحياة » .. وعلى مدى نضج الاب وسلامة شخصيته وتصرفاته تتحدد شخصية الابن في المستقبل ، ونموذج « والد كافكا » نموذج شائع معروف في شتى المجتمعات .

ولنعد الى رسالة كافكا لنرى فيها تجربة ذلك الفنان العظيم مع والده . انه يبدأ الرسالة بقوله : « منذ عهد غير بعيد سألتني عما يخيفني منك ، فلم ادر كعادتي معك بم اجيب ، ويرجع ذلك من ناحية الى نفس ذلك الخوف الذي يملك علي نفسي ازاءك ، والى ان دوافع ذلك الخوف كثيرة متعددة يصعب الكلام عنها في دقة وتفصيل » .. فالعلاقة بينهما تقوم على الخوف .. خوف الابن من ابيه وهذا هو الاساس الاول الذي ادى الى عدد من النتائج على جانب كبير من الخطورة ، ومن ناحية اخرى نتيجة لسلوك الاب وشخصيته الخاصة .

فالاب لا يحاول ان يفهم نفسية الطفل فهما صحيحا ، بل يعامله كما لو كان ندا له والمثال على ذلك تلك القصة التي روياها في اول هذا المقال ، عندما اراد كافكا ان يشرب فبكا وصرخ ، وكان عقابه ان وضعه ابوه في الشرفة ، وسط الظلام والبرد دون رحمة او حنان ، ولنسمع كافكا يقول عن تلك الحادثة في رسالته الى ابيه :

« من المؤكد ان العطش لم يكن الدافع الوحيد للبكاء ، ولكنني كنت ابكي لكي اثيرك من ناحية ، ولك اتسلى من ناحية اخرى ، ولما لم تفلح تهديداتك العنيفة المتكررة في اسكاتي اخرجتني من سريري وحملتني الى الشرفة حيث تركتني بعض الوقت وحيدا ، وليس على جسدي الا رداء رقيق ، واغلقت باب الشرفة دوني . »

هذا هو الطفل الحقيقي .. انه يبكي احيانا للاثارة . واحيانا للتسلية .. انه يريد ان يثير انتباه الاب ، يريد ان يشعر بوجوده وبشخصيته من خلال اهتمام الاخرين . وهذا حق من حقوق الطفل ، بل وجزء من الطبيعة البشرية السليمة في تلك المرحلة من العمر ، وعلى الاب ان يقدرها تمام التقدير ، ويعالجها بطريقة سليمة . اما اذا عالجها على ان الطفل يبكي بدون سبب ومعقول فان النتيجة تكون ان يقف منه موقف العقاب ، وقد يشتد هذا العقاب ويقسو ، فيؤدي الى اثار سيئة ضارة .

ما هي تلك الاثار السيئة الضارة ؟ ان كافكا يجيب

صدر حديثا عن دار بيروت

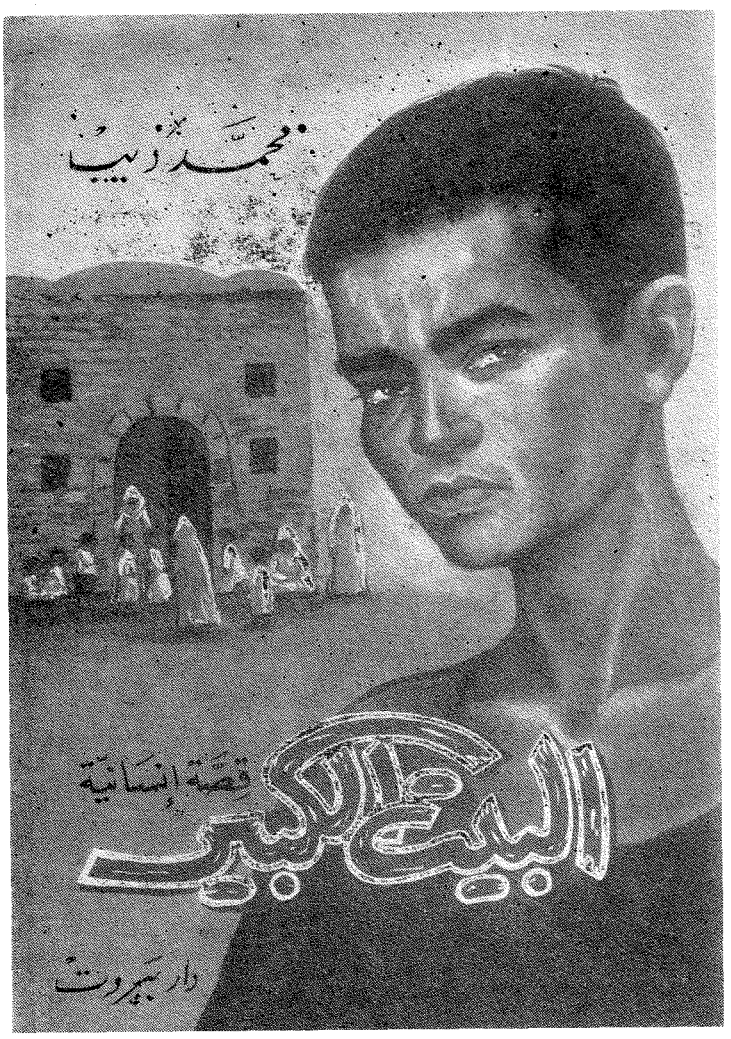

البيت الكبير :

قصة الجزائر في بؤسها وشقاءها وحرمانها ونضالها

للكاتب الجزائري الكبير محمد ديب

على ذلك في رسالته :

« لقد كان ذلك كافيا ولا ريب لكي يجعل مني مخلوقا مطيعا في الظاهر ، وان كان قد سبب ضررا اخر خفيا ،فلم يكن ذهني في ذلك الوقت يستطيع ان يدرك العلاقة بين طلبي للماء بدون مبرر ، وبين اخراجي الى الشرفة ، والامر الاول كان يبدو طبيعيا جدا في نظري ، ولكن الثاني كان مريعا مخيفا ولا شك ، وقد ظللت سنين طويلة اتألم في مرارة كلما تذكرت كيف ان ذلك الرجل الجبار الذي هو ابي ، وهو الملاذ الاخير لي ، كان يستطيع ان يخرجني من السرير بدون مبرر قوي اثناء الليل ليتركني في الشرفة مدللا بذلك على تفاهتي وضآلة شأني »

« بيد أن هذا الشعور بالتفاهة الذي كان متواضعا اول الامر والذي كنت استمده من تأثيرك علي ، استفحل خطره فيما بعد حتى سيطر تماما على شخصيتي . »

ان فهم نفسية الطفل مسألة هامة الى ابعد حد ، واذا كان ذلك مطلوبا من المتصلين بالطفل عموما فهو مطلوب على وجه الخصوص من الاب . . . انه واجبه الاول ، ومسؤوليته الكبيرة . . والنقطة التي يشير اليها كافكا . وهو عدم الثقة بالنفس ، والاحساس الذاتي بان الانسان لا قمية له ولا اهمية . . هذا النوع من الشعور الذي يسيطر على الشخصية ينشأ عادة في الطفولة ، وهو ينشأ على التحديد نتيجة لعلاقة الاب بابنه والشعور بالتفاهة ، وانعدام الثقة بالنفس ، شعور مدمر قاتل قد يؤدي الى انهيار الشخصية تماما وهو يؤدي احيانا الى نوع مرير من التمزيق والقلق ، مثل ذلك الذي سيطر على كافكا وادى في النهاية الى مرضه بالسل ، والى وفاته في الواحدة والاربعين ، وفي بعض الاحيان يصبح انعدام الثقة بالنفس مفيدا لانه يدفع الى العمل والاجتهاد رغبة في تعويض النقص الموجود في الشخصية ، ولكن ذلك لا يكون اذا ما كان شعور انعدام الثقة غائرا عميقا في النفس . . ان قدرا محدودا معقولا من هذا الشعور هو وحده الذي يفيد الحياة الانسانية السليمة ،اما الاسراف فيه فدمار ، او طريق الى الدمار

وربما ترجع مسؤولية هذا الشعور الى الظروف ، او الى التجارب ، ولكن مرجعها الاساسي في حياة الانسان هو : شخصية الاب ، ومن هنا كان واجب الاباء كبيرا . ان عليهم ان يفكروا كثيرا في علاقاتهم بابنائهم وان يتخلوا عن جعل الابناء حقلا للتجربه او مجالا لتعويض ما ينقصهم في حياتهم . . كان يتحول الاب المستضعف في المجتمع الى ديكتاتور مع ابنائه . . انه تعويض مريض » اما التعويض السليم فهو ان يلتمس الاب قوته تقويه ابنه ومساعدته على الحيه الطبيعيه . ونقطة اخرى على غاية من الاهمية يثيرها « كافكا » في رسالته الى ابيه ، يقول الكاتب الفنان :

« لقد كان محرما علينا نحن ان تعرق العظام،امانت فكنت تعرقها ، ولقد كان محرما علينا نحن ايضا ان نلعق الخل ، اما انت فكنت تلعقه ، كنت ترى انه يجب تقطيع الخبز قطعا متساوية نظيفة ، ولكنك لم تكن تتورع عن تقطيعه بسكين ملوث بالصلصة ، كنت تحذرنا من ان يقع الفتات منا على الارض ، ولكن عقب الطعام كنا نرى كثيرا متناثرا حيث كنت تجلس . كنت تقول ان المرء يجب ان يتفرغ على المائدة للاكل فقط ، ولكنك كنت تنظف اظافرك فتقلمها وتبري الافلام وتنظف اذنيك بالخلال التي تستخدم لتنظيف الاسنان بعد الاكل »

واذا كان هذا المبدأ سليما في كل الامور ، فهو اكثر سلامة في ميدان الابوة ، فالاب هو المدرسة الاولى والكبرى التي يتعلم فيها الابن ، وقد لا يتمكن الابن من اكتشاف التناقض بين القول والعمل في حياة مدرسه ، او في حياة زميله ، او جاره . . ولكنه سيتمكن حتما من كشف هذا التناقض في حياة والده لانه يعيش مع والده وقتا طويلا ، وفي الظروف تمكنه ان يعرف اذا ما كان ابوه صادقا فيما يقوله ، ام ان اقواله ليست الا مجرد ادعاءات .

لقد مات كافكا حزينا متألما ، بعد ان قاسى حياة مريرة حزينة . . لم يهنأ فيها بعالم سليم ، ولم يهنأ فيها بحب ، ولم يهنأ فيها بأب يتعاطف معه ويحترمه . . وبعد ان مات كافكا بسنوات جاء « هتلر » الى الحكم ، فقرر ان يحرق كتب كافكا ويصادرها ، ونفذ هذا الامر بالفعل . وكان السبب الحقيقي هو ان كافكا يصور الظلام النفسي الذي يمزق الناس ، وكان هذا التصوير هو التعبير الحقيقي عن واقع الناس في المانيا قبل ايام هتلر وفي ايامه ايضا . اما السبب الظاهر فهو : ان كافكا يهودي والحقيقة التي كان يعلمها هتلر تماما هو ان كافكا كان انسانيا ، شامل النظرة ، بعيدا كل البعد عن الافكار الضيقة المحدودة

لكن عذاب كفكا قد منحنا اشياء عظيمة . . . لقد منحنا عزاء نفسيا ، ودعوة الى الحياة في انسجام وتناسق وكراهية للمتناقضات المفزعة التي يغلف بها الناس حقيقة الحياة . . اما رسالته الى والده فهي عمل فني صادق ، وهي الى جانب ذلك درس أجتماعي ذكي يعلمنا فن الابوة الحقيقي ، على أنه فن من الفنون السامية الصعبة الخطرة في نفس الوقت ، انه فن يحتاج الى جهد ومثابرة وتواضع حتى يكون اساسا لخلق اشخاص ايجابيين اصفياء لا طريقا الى التعقيد النفسي والدمار وضيعة الانسان في الحياة .

رجاء النقاش القاهرة

الفروسية العربية

ترجمة : الزعيم جوزف سمعان

قائد الدرك اللبناني

المقدمة : للاستاذ بطرس البستاني

نشر : دار المكشوف ، بيروت